المقاربة السوسيونصية لرؤية العالم في الخطاب النقدي الرو ائي الجز ائري
_أعمال سيدي محمد بن مالك أنموذجا
د. إلهام بن مايسة. جامعة ابن خلدون_ تيارت

مقدمة:

عرف النقد الأدبي مطلع القرن العشرين تحولات مهمة على مستوى الرؤية والمنهج واكبت جملة التطورات العلمية والفلسفية التي عرفها العالم، ومست بوجه خاص المجال الاجتماعي والاقتصادي، فاضطرته إلى مراجعة تصوراته وإعادة النظر في مفاهيمه، وهو الذي يعمل على مقاربة الأعمال الأدبية بما يملك من فعالية فكرية وأخرى فنية تمكنه من الإحاطة بالظاهرة الإبداعية وتنوع أشكالها ورصد مراحل تشكلها، ومن ثم كشف دلالاتها وخباياها، وفهم خصائصها ومميزاتها، كما تؤهله للكشف عن مواطن الجمال والقيم في النصوص الأدبية التي يستمد منها رؤيته ويبني عليها قواعده، ومن خلالها يجدد آلياته وأدواته وعلى أساسها يطور مناهجه.

وبهدف معاينة الظاهرة الأدبية ومعالجتها يستدعي النقد الأدبي وجود مناهج علمية تمده بالأدوات الإجرائية اللازمة، وقد أسهمت مناهج العلوم الإنسانية في تعزيز النظرية النقدية من خلال تلاقح الحقول المعرفية على تنوعها فأفرزت مناهج اختلفت مفاهيمها ومعطياتها باختلاف الفلسفات الفكرية لأصحابها، خاصة بعد ظهور اللسانيات الحديثة مطلع القرن العشرين حيث عرف مسار النقد الأدبي محطات مهمة مع ظهور البنيوية، وما بعد البنيوية

كالسيميائية ،ونظرية التلقي، والنصّانية، والتفكيكية، والتداولية وغيرها، جعلته أيضا يختزل رؤية خاصة للعالم أنتجتها مجموعة الخلفيات السوسيوثقافية التي أدت إلى ظهوره.

1_ الأدب والو اقع الاجتماعي

يعد الأدب أهم أنواع التعبير الإنساني لامتلاكه خاصية تمثيل التجارب الحياتية التي تعتني في مضامينها بالتحولات والتطورات، والعبر والمعاني، فيعمل على رصد المشاهد اليومية والظواهر الاجتماعية، ويبلور رؤيته اتجاهها. ذلك أن " للأدب انعكاسات اجتماعية حتى في أكثر موضوعاته خصوصية، فهو نشاط اجتماعي قبل أن يكون نشاطًا لغويًا، بل حتى اللغة تفسر من منظور اجتماعي قبل أن تفسر من منظور آخر"[1] ما يخلق فهما عميقا وحقيقيا للحياة، كما يسهم في عملية الإثراء والغنى المعرفي والنفسي والإبداعي للمتلقي الذي يميل بشكل أكبر لكل ما يلامس واقعه وحياته بشكل أدبي مجازي.

يتخذ الأدب بصفة عامة والسرد منه على وجه الخصوص من الحياة الاجتماعية مرجعية موضوعاتية يتكئ عليها، فيعمل على تمثيل السلوك الفكري والمعرفي للفئات المجتمعية، ورغم كون المنجز الأدبي إبداعا فرديا في صبغته إلا أنه لا ينفصل عن سياقه الاجتماعي بما يحمله من رؤى تداخلت في تكوينها العوامل التاريخية، والاجتماعية، النفسية والثقافية، والإيديولوجية، فكل "ظاهرة فنية مهما كان قدر استقلالها، فهي لا تفهم فهما كاملا إلا عندما تربط بسياقها الفكري والاجتماعي العام"[2]، ومن ثم اشتغل الأدب على تقديم فهم أعمق للحياة عبر واقع متخيل يتجاوز من خلاله نظرية الانعكاس نحو تقديم نماذج متباينة من آليات التفكير تمكن القارئ من التعرف على العالم خارج إطار ذاته.

وأضحت الرواية الشكل الأدبي الأكثر تعبيرا عن هموم المجتمع وقضاياه وهي التي ولدت في خضم التغيّرات التي مست المجتمع الأوروبي قبل القرن الثامن عشر و وتطورت بما يتناسب وطموحات الفرد والمجتمع في ظل الحياة الحديثة وإفرازاتها، مبرهنة " أن الفضاء

[1] _ أحمد فراج. (الثقافة والعولمة / صراع الهويات والتحديات) الهيئة العامة لقصور الثقافة. كتاب أبحاث المؤتمر الرابع لإقليم غرب ووسط الدلتا سنة 2003. ص 96

[2] _ حميد لحمداني، من أجل تحليل سوسيو بنائي للرواية. منشورات الجامعة، مكتبة الأدب المغربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1984، ص9.

الروائي مزيج من المعرفة والبصيرة، أو لقاء محسوب بين الواقعي والمتخيل"[1] يعمل من خلاله الأديب على رسم رؤية للعالم تجسد موقفه من التاريخ والواقع الاجتماعي والتعبير عن تطلعات أفراد مجتمعه، كما أن الطبيعة الذهنية للمجتمع تميل بشكل أكثر مرونة وانسيابية للنمط النثري القادر على رصد الأحداث والوقائع اليومية واحتوائها بشكل أرحب.

ارتبط الإبداع بالتعبير عن البنى الفكرية والاجتماعية والاقتصادية لمجموعة أفراد تتفرد بوجودها الفكري والمادي. لذا اشتغلت الرواية على إثارة تفاعل بين الموقف الاجتماعي من الواقع من جهة وبين رؤية الأديب المبدع الذي يمثل أفراد طبقته الاجتماعية وينوب عنهم في مقاربته الظاهرة فنيا من جهة أخرى، لتصبح مهمة النقد الأولى الكشف عن أوجه هذا التفاعل، وقد شكل ظهور البنيوية التكوينية فتحا جديدا في قراءة النصوص الروائية، كونها عملت على " الربط بين الداخل والخارج، لتحقيق حل وسط، أي تستطيع البنية اللغوية للنص أن تكون مستقلة _وهو الداخل_ وأن تؤكد علاقتها بالبنى والأنظمة الأخرى، كالنظام الاقتصادي والصراع الطبقي"[2]، فالفكر السوسيولوجي يلح على التداخل والتشابك بين عدد من العناصر النفسية والاجتماعية والسياسية والثقافية في صناعة الأدب.

2_السوسيونصية في مقاربة الأعمال الروائية:

تعد سوسيولوجيا النص الأدبي أو علم اجتماع النص الأدبي أو ما يعرف أيضا بالدراسات السوسيونصية، فرعا من فروع علم الاجتماع العام ، وإن كان "علم اجتماع النص: sociologie du texte/ sociology of the text مفهوم حديث يستخدمه الناقد للدلالة على دراسة النصوص باعتبارها مجموعات أو نتاجات خاصة تشكل رؤية أو تصور للواقع والمجتمع والتاريخ . وهذه الدراسة تنطلق من النص ذاته وتعتبره منظومة أو بنية حيوية تمد القارئ بكل ما هو ثقافي واجتماعي وإيديولوجي"[3]، فيهتم بدراسة الظواهر الأدبية

[1]_ فيصل درّاج، الرواية وتأويل التاريخ، نظرية الرواية والرواية العربية. المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب. ط1، 2004، ص18.

[2]_ وليد قصّاب، مناهج النقد الأدبي الحديث. دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، 2007، ص146.

[3]_ سمير سعيد حجازي، قاموس مصطلحات النقد الأدبي المعاصر، دار الآفاق العربية، القاهرة، مصر، ط1،، 2001، ص132.

والفنية والجمالية مستعينا بمقاربات عديدة أهمها المقاربة السوسيولوجية التي تتيح له سبل تحليل و" معرفة كيف تتجسد القضايا الاجتماعية والمصالح الجماعية في المستويات الدلالية والتركيبية والسردية للنص"[1] فيعمل على كشف التفاعل الناتج بين البنية الفنية والمعطيات الاجتماعية من خلال تقريب المسافة بين التحليل الاجتماعي والتحليل الجمالي وبين الإيديولوجيا والتخييل.

ظهرت سوسيولوجيا النص الأدبي بوصفها اتجاها نقديا على يد الناقد الشيكوسلوفاكي »"بيير زيما Pierre V. Zima " سعى من خلالها إلى تعزيز رؤية جديدة للنص"تدرس الأدب كظاهرة مرتبطة بنسق دال فلسفي أو إيديولوجي، كما حاول دراستها في انفصالها كتقنية خالصة أو تنظير ذي طابع سوسيو-تاريخي للمصالح الاجتماعية[2]"، وجعل من المعطى الاجتماعي بما يحيل عليه من شرح شرطا أساسيا في فهم الأدب وتفسيره، وقد نهل في تأسيس تصوره حول سوسيولوجيا النص عن مناهل عدة تمثلت في مفاهيم التراث الفلسفي والجمالي، وإسهامات جماعة فرانكفورت، إلى جانب الإمكانات التي توفرها كل من السيمياء ، وعلم الدلالة، كما استفاد أيضا من مقولات السيميوطيقا الأدبية، ونظرية الرواية، السوسيولوجيا، والواقعية الجدلية، والبنيوية التكوينية.

يعرض بيير زيما في كتابه "النقد الاجتماعي" جملة من القضايا الأساسية، بدءا بموقفه من اللغة التي يرى أنها تتضمن حمولات إيديولوجية وليست مجرد بنية مغلقة ونظام محايد، طالما أن النص "كيان ملموس وحي يعيش حياته عبر قوانينه الخاصة، ولكن يحمل في هذه القوانين خصائص الحياة الاجتماعية التي يعيش في إطارها ويبدع ويتلقى،"[3] ما يتيح له رسم الحياة الاجتماعية المتعارضة في صراعها المتواصل والمستمر من أجل ضمان بقاءها والحفاظ على مصالحها ، ومن ثم يتحرر من النظرة الضيقة التي فرضتها البنيوية الشكلية

[1] _ بيير زيما. النقد الاجتماعي. تر: عايدة لطفي. دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1991، ص.:12

[2] _أنور عبد الحميد الموسى: علم الاجتماع الأدبي (منهج سوسيولوجي في القراءة والنقد)، دار النهضة العربية، بيروت/ لبنان، ،2011 ص 106

[3] _ بيير زيما. النقد الاجتماعي،ص8

التي تعزله عن كل معطى خارجي وتفرض عليه الانغلاق على نفسه نحو الاستعانة بالبنيوية التكوينية التي فسرت الأدب من منظور اجتماعي.

وإذا كان المنهج النقدي يمثل مجموع العمليات والإجراءات التي يتخذها الناقد أثناء عملية تحليل النص واستنطاقه، ويعبر عن رؤية وطريقة تفكير وأسلوب في التحليل من وجهة نظر محددة، فإن المنهج السوسيونصي الذي ينطلق من داخل النص نحو البنية المجتمعية الخارجية، مدعو هو الآخر للتعبير عن مختلف التّحولات المعرفيّة والثقافية التي عرفتها مرحلة الحداثة وحتى المراحل المتقدمة من تاريخ الفكر الإنساني، الأمر الذي جعل بيير زيما يرى في ضرورة تكامل المناهج النقدية شرطا أساسيا لمقاربة النص الأدبي "فمن تحليل الأسلوب أو اللغة داخل النص يصل إلى الدراسة التركيبية الدلالية المتكاملة القادرة على كشف النص والمجتمع في نفس الوقت، ودون انفصال"[1] فالتكامل المنهجي بإمكانه أن يطرح مختلف التصورات النقدية ويطور سوسيولوجيا النص الأدبي.

3_ رؤية العالم في الخطاب النقدي الجزائري:

تشكل رؤية العالم le vision du monde أهم مقولات المنهج البنيوي التكويني، ظهرت بوصفها مفهوما في كتابات العديد من النقاد والمفكرين علي غرار جورج لوكاش الذي استمد فلسفته النظرية من الكلية الهيغلية، إلا أنها تبلورت أكثر مع لوسيان غولدمان الذي يربط رؤيا العالم بالطبقة الاجتماعية، لكونها "المظهر الأساسي الملموس للظاهرة التي يحاول علماء الاجتماع تعريفها منذ عشرات السنين بمصطلح الوعي الجمعي"[2] حيث تجتمع الظواهر الاجتماعية والعوامل التاريخية لجماعة أو طبقة اجتماعية، يعمل المبدع من خلال ملكته الفنية على التعبير عن طموحاتها وأفكارها عبر رؤية موحدة وشاملة لا يمكن إدراكها إلا بفهم البنية الذهنية للمجموعة، فالأدب لا ينعزل عن المجتمع ولا يكون مستقلا عن التأثيرات الخارجية للأديب أو الناقد.

---

[1] _ بيير زيما. النقد الاجتماعي ، ص09

[2] _لوسيان غولدمان. الإله الخفي، تر: زبيدة القاضي، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، سوريا، ط1، 2010، ص43.

يتولى الأديب مهمة عرض البنية العميقة للمجتمع وإبرازها عبر رؤية جمالية ودلالية تخلق نوعا من الانسجام والتماثل بين النص الروائي والواقع الاجتماعي، ومن ثم تتبنى البنيوية التكوينية توجها يجمع بين أطروحات الشكليين ومبادئ الفكر الماركسي، إلا أن بيير زيما الذي استفاد من اللسانيات الحديثة والنظريات النقدية النصانية كالبنيوية والسيميائية، يرى أن التشابهات التي يفرضها الماركسيون بين الأدب والمجتمع غير كافية وأنه لابد من "التركيز في المنهج على مسألة ما إذا كان من الممكن وصف العلاقة بين النص الأدبي وسياقه الاجتماعي على المستوى الإمبريقي، ولا يتحقق وصف كهذا إلا إذا ظهر الأدب والمجتمع في منظور لغوي"[1] فاللغة لها إيديولوجيتها الخاصة ومن ثم تغدو شرطا أساسيا في مقاربة رؤية العالم.

ارتبطت الرواية بالحياة والمجتمع باعتبارها فنا يحاكي الوجود بكل متغيراته ويعبر عن التجربة الإنسانية التي تتخذ شكل بنيات فكرية واجتماعية واقتصادية لمجموعة أفراد في تفاعلهم فيما بينهم، وتكيفهم مع ظروفهم الحياتية "إذ ثمة تساوق بين الشكل الأدبي للرواية والعلاقة اليومية التي يقيمها الناس مع المنافع ومع الناس الآخرين"[2] كما تحمل في طياتها رؤية شمولية للفرد والمجتمع يعمل الكاتب من خلالها على تجسيد موقفه من التاريخ ومختلف القضايا والإشكالات التي يطرحها الواقع. ما يفسر خضوع الرواية الجزائرية في موضوعاتها للفكر الإيدولوجي الذي صاحب نشأتها فترة السبعينات والثمانينات.

وقد عرفت الساحة الأدبية في الجزائر مطلع الثمانينات سيطرة للتوجهات الإيديولوجية على المشهد الروائي، وقد صاحبها خطاب نقدي اجتهد في مقاربة النص انطلاقا من سياقه الاجتماعي، مثله جيل من النقاد استلهم أفكاره من فلسفات المدارس النقدية الحديثة ومناهجها، على غرار محمد ساري في (البحث عن نقد أدبي جديد) و(الأدب والمجتمع)، ومقاربة عبد الحميد بورايو ل (القصص الشعبي)، عمار بلحسن في (الرواية

[1] _ بيير زيما، النقد الاجتماعي، ص172

[2] _ جان إيف تاديه، النقد الأدبي في القرن العشرين. تر: منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري للدراسة والترجمة والنشر، حلب، سوريا، ط1، 1994.ص130

والإيديولوجيا)، ثم عمر عيلان في (الإيديولوجيا وبنية الخطاب الروائي) و(النقد العربي الجديد)...وغيرها. فشكلت هذه الدراسات القاعدة الأساس للمنجز النقدي البنيوي التكويني في الجزائر الذي احتفى على وجه الخصوص برؤية العالم في الخطاب الروائي.

حيث تطرق عمار بلحسن في كتابه "الأدب والإيديولوجيا" لمفهوم رؤية العالم الذي يتحدد انطلاقا من مفهوم الحس المشترك الذي يستعمله غرامشي، ويعرفه على أنه "فلسفة اللافلسفة، أي تصور العالم تصورا غير نقدي على النحو الذي نجده في مختلف البيئات الاجتماعية والثقافية التي تنمو فيها الفردية الأدبية للإنسان الوسط، والحس المشترك ليس تصورا وحيدا يظل على حال واحدة عبر الزمان والمكان"[1]

كما تناول الناقد الأكاديمي مشري بن خليفة في كتابه "سلطة النص"[2] عدة قضايا نقدية من بينها رؤية العالم التي تعتبر من المفاهيم المركزية في النقد البنيوي التكويني والتي حاول أن يكشف عنها في قصة "رمانة"[3] فتطرق إلى مفهومي الوعي القائم والوعي الممكن وانطلق منهما ليبني تصوره لرؤية العالم مستنتجا أنها غير واضحة كونها جاءت شاهدا على مرحلة مهزوزة سياسيا واجتماعيا واقتصاديا[4] وهو استنتاج يعبر عن رؤية ذات فردية ولا تعبر عن وعي جماعي.

يبحث إدريس بوديبة من خلال كتابه (الرؤية والبنية في روايات الطاهر وطار)[5] في القضايا التي ترتبط بتحولات الرؤية الإيديولوجية وعلاقتها بالبنية الروائية عند الكاتب، موضحا خطة عمله القائمة على الاستفادة من المنهجين البنيوي، والاجتماعي[6]، فينطلق من داخل النص الروائي من خلال تحليل بنيات الخطاب السردي مستعينا بأدوات التحليل التي

[1] _ عمار بلحسن، الأدب والإيديولوجيا، نشر وتوزيع: الملتقى، مراكش، ط2016،2، ص17.

[2] _ مشري بن خليفة، سلطة النص، منشورات الاختلاف، الجزائر ط1، 2000

[3] _الطاهر وطار، رمانة (رواية)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 19981

[4] _ ينظر: مشري بن خليفة، سلطة النص، ص 128

[5] _ إدريس بوديبة، الرؤية والبنية في روايات الطاهر وطار. منشورات وزارة الثقافة، الجزائر، ط1، 2007.

[6] _ ينظر المصدر نفسه، ص6.

توفرها النظرية البنيوية للسرد قصد مقاربة مختلف الظواهر الاجتماعية والرؤى الفكرية في العمل الأدبي.

في حين يعمل محمد ساري في كتابه (الأدب والمجتمع) على مقاربة رواية (بدر زمانه) فيجمع بين الصراع والرؤية للعالم وهما قضيتان جوهريتان في الطرح البنيوي التكويني، ورغم احتفائه بالجانب النظري على حساب الجانب التطبيقي إلا أنه انتهى إلى وصف رؤية العالم في رواية (بدر زمانه) بالتشاؤمية،[1]، فيجعلها رؤية شاملة ذات أبعاد سياسية وإيديولوجية، واجتماعية، مع أن المقاربة التطبيقية لم تكن بالعمق الذي يجعلها تتعدى حدود قراءة مضمون النص ووصف سلوكيات الشخصيات.

5_ التوجه النقدي في أعمال سيدي محمد بن مالك:

يعد الباحث الأكاديمي سيدي محمد بن مالك من بين المهتمين بقضايا النقد الروائي في الجزائر، تجلت إسهاماته في هذا المجال من خلال مؤلفاته[2] ومجموع مقالاته المنشورة في المجلات وطنية والدولية، حيث أجمعت كلها على إبراز دوره الفعال في إثراء المنجز النقدي الجزائري وبينت مدى استيعابه للأسس النظرية ووعيه بالجهاز المفاهيمي للمناهج النقدية في أصولها الغربية من جهة وتمكنه من تسخير الأدوات الإجرائية وتطويعها بما يناسب مقاربة المدونات الروائية المختارة والتي خصص لها الجانب الأكبر من البحث من جهة ثانية.

ولأنه يراعي خصوصية المتون الروائية الجزائرية التي اختارها للدراسة وهي تلك التي رافقت مرحلة مهمة وحاسمة من تاريخ الجزائر المستقلة، فمثلت فترة السبعينات

---

[1] _ محمد ساري، الأدب والمجتمع، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع. الجزائر. ط1. 2009.، ص76

[2] _ المؤلفات: –1" رؤية العالَم في روايات عبد الحميد بن هدوقة؛ مقاربة سوسيوشعرية"، منشورات الاختلاف، الجزائر، الطّبعة الأولى، 2015، 2015" – 2 .السّرد والمصطلح؛ عشر قراءات في المصطلح السّردي وترجمته"، دار ميم للنّشر، الجزائر، الطّبعة الأولى، 2015. _3 سيمائية الحيوان في الشّوقيات؛ الرّمز والنّسق الثّقافي"، دار الفكر للنّشر والإشهار، مطبعة الثّقافية، المنستير، تونس، الطّبعة الأولى، 2015" – 4 .قاموس السّرديات؛ مصطلحات الشّكلانية والبنيوية الأدبية والبنيوية الشّعرية والسّرديات البنيوية والسّيميائية السّردية، فرنسي – عربي"، كتابٌ إلكترونيٌ، المنظّمة العربية للتّرجمة، بيروت، لبنان، 2015" – 5 .جدل التّخييل والمخيال في الرّواية الجزائريّة؛ قراءات سردية ثقافيّة"، دار ميم للنّشر، الجزائر، الطّبعة الأولى، 2016" – 6 .الرّواية الجزائريّة المُعاصِرة بين التّخييل والتّاريخ"، دار خيال للنّشر والتّرجمة، برج بوعريريج (الجزائر)، الطّبعة الأولى، 2021.

والثمانينات بما تضمنته من تحولات اجتماعية واقتصادية وثقافية، نجده يركز على ربط النص بسياقه الاجتماعي دون التغاضي عن أسئلته الجمالية والفنية، مستفيدا من الإنجازات النظرية للمقاربات البنيوية والسوسيولوجية، ما يتيح له الدمج بين علاقات النص الداخلية وما يفضي إليه من علاقات خارجية ذات صياغة نصية اجتماعية، والانتقال من داخل النص الروائي عبر تحليل بنيات الخطاب السردي نحو مقاربة مختلف الظواهر الاجتماعية والرؤى الفكرية في العمل الأدبي. فهذه المكونات الخطابية تتيح له مقاربة الرؤية الواقعية والإيديولوجية في إطار المزاوجة بين المنهجين الشكلي والاجتماعي.

يتمظهر هذا التوجه النقدي عند سيدي محمد بن مالك من خلال مؤلفاته التي نذكر منها **"جدل التخييل والمخيال في الرواية الجزائرية"** حيث تناول قضايا الفضاء والنسق والوصف والمعنى، ليخلص إلى كون التخييل سواء كان سرديا أو روائيا فإنه يضطلع بإنتاج مخيال نصي مخالف للواقعي من خلال إدراك خاص للوجود. أما في كتابه **"الرواية الجزائرية المعاصرة بين التخييل والتاريخ"** فقد تبنى وجهة نظر سرديات ما بعد البنيوية لمقاربة ثنائية التخييل والتاريخ، فيتراوح المحكي الروائي بين البعد التخييلي الذي تجسده المكونات السردية متمثلة في الراوي السير ذاتي والتبئير والمقام السردي والبرنامج السردي والتحفيز التأليفي الزائف، والبعد التاريخي الذي يستمد مادته من مجموع الأحداث التي تعكس رؤى العالم المعبرة عن الأفكار والطموحات والتجارب الإنسانية، كما تحدد نظرتها للذات والآخر.

6_استراتيجية سيدي محمد بن مالك في الكشف عن رؤية العالم :

أ_ المرتكزات النظرية

يعزز سيدي محمد بن مالك مشروعه البحثي بإصدار كتابه الموسوم ب (رؤية العالم في روايات عبد الحميد بن هدوقة) [1] الذي يشكل إضافة نوعية للمنجز النقدي في الجزائر، فيبحث في تمظهرات رؤية العالم من خلال مقاربة عدد من روايات عبد الحميد بن هدوقة

[1] _ سيدي محمد بن مالك، رؤية العالم في روايات عبد الحميد بن هدوقة، مقاربة سوسيوشعرية. منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2015.

مقاربة سوسيوشعرية، وعن ضرورة تبنيه هذا التركيب المنهجي يوضح أن "مقاربة تؤلف بين شعرية النص واجتماعيته ستسد النقص المنهجي الذي شهدته البنيوية التكوينية"[1] التي انحازت إلى التحليل الاجتماعي على حساب الدرس اللساني، ومن ثم فإن عملية "التوفيق بين النص _الشخصية والمجتمع_ الإنسان ستتلافى خطر الوقوع في شرك النظرة الأحادية لنصوص بن هدوقة"[2] ما يضمن له الانفلات من قيود الاتجاه الاجتماعي أو الأيديولوجي التي طبعت الدراسات السابقة التي ارتكزت على البعد الواقعي والاجتماعي على حساب الجانب الفني والجمالي.

ولِكَون رؤية العالم تعبر عن الوعي الجمعي للفئات المجتمعية فإن الباحث يعول في تحديد أنماط رؤيا العالم وتمظهراتها على فكرة الصراع الذي تعيشه الشخصية الروائية في تأثرها بأحداث الرواية وتفاعلها مع باقي الشخصيات، لتعكس ما تعانيه شخصية الفرد من هواجس وانفعالات في وجودها الاجتماعي على أرض الواقع ،حيث "تعيش الشخصية الروائية قلقا وتوجسا دائمين في صراعها المرير مع الواقع المتشيء الرتيب غير واثقة من بلوغها بر الأمان. وبهذا الشكل، تتململ الشخصية، في الرواية، بين وعي واقع ينضح بالتخلف والاضطهاد والاستغلال ووعي ممكن تتوق من خلاله إلى الانعتاق والنماء والخير"[3] ومن ثم تناولت مقدمة الكتاب الصراع في الرواية، وأنواعه، وعلاقته بالشخصية الروائية، وارتباطه بالتحولات الاقتصادية .

يستعرض الباحث في المدخل الأسس النظرية للمنهج البنيوي التكويني في محاضنه الغربية والتي استمد منها معطياته النقدية بما يثري الشق التنظيري للبحث، حيث سيطرت مصطلحات البنيوية التكوينية ومقولاتها في محاولة لتقريب مفاهيم كل من الوعي الإشكالي، ورؤيا العالم، والإيديولوجيا، والشخصية الروائية للقارئ، وتهيئته لما تحمله فصول الكتاب من قضايا تنوعت فيها الطروحات النقدية بتنوع الروايات المدروسة بين: (الوعي ووساطة

[1] _ سيدي محمد بن مالك، رؤية العالم في روايات عبد الحميد بن هدوقة ، ص12.

[2] _ المصدر نفسه، ص12.

[3] _ المصدر نفسه ،ص11.

الفعل في رواية ريح الجنوب)[1]، (السردية ورؤية العالم في رواية نهاية الأمس)[2]، (الفضاء والأيديولوجيا في رواية بان الصبح)[3]، (المرجع التخييل في رواية جازية والدراويش)[4]، وأخيرا (الزمكان والرؤية المأساوية في رواية غدا يوم جديد)[5] محاولا الإحاطة بالظاهرة وتناولها بوصفها كلا متكاملا[6]، من خلال استغلال مكونات السرد من: شخصية، وحدث وفضاء وزمن، والاستفادة من تلاحم دلالاتها وانسجامها مع بعضها.

وضمن استراتيجيته في الكشف عن رؤى العالم في النصوص الروائية يختار سيدي محمد بن مالك التطرق لمختلف المكونات السردية بوصفها كلا متكاملا "فلا يفصل بين الشخصية والحدث الذي يند عن فعلها المادي أو الكلامي، ولا في الحدث والمكان الذي يحتضن الفعل، ولا بين المكان والزمن الذي ينظم الحدث في موضع ما"[7]، كما أن اشتغاله على التركيب بين النسق ممثلا في بنية النص اللغوية والسياق الذي يحيل إلى البنية الإيديولوجية تيمنا بسابقيه من النقاد لا يحول دون استفادته من آليات وأدوات إجرائية "مستمدة من نظريات وتيارات متنوعة مثل البنيوية باختلاف اتجاهاتها من مورفولوجيا وشكلانية وشعرية وسرديات، والسيميائية السردية والخطابية، والسوسيولسانية والتأويلية"[8]، ما يتيح له الإحاطة بمختلف رؤى العالم المتضمنة في الروايات، وإبرازها ورصد تمظهراتها الناتجة عن التفاعل القائم بين العناصر الثلاث: النص والشخصية والمجتمع

[1] _ سيدي محمد بن مالك، رؤية العالم في روايات عبد الحميد بن هدوقة ، ص47.
[2] _ المصدر نفسه، ص95.
[3] _ المصدر نفسه، ص.141
[4] _ المصدر نفسه ، ص187.
[5] _ المصدر نفسه، ص231.
[6] _ ينظر: المصدر نفسه، ص14.
[7] _ المصدر نفسه ، ص 13، 14.
[8] _ المصدر نفسه، ص13.

ب_ رؤيا العالم والإيديولوجيا من منظور سيدي محمد بن مالك:

يربط سيدي محمد بن مالك بين ظهور مفهوم رؤيا العالم والتحولات الجذرية التي عرفها المجتمع الغربي في الميادين العلمية، الاجتماعية والاقتصادية فأسفرت عن ظهور التشيؤ الذي أثر على الفرد ووعيه الجماعي مشيرا إلى تأثر بنية الرواية بالوضعية الاقتصادية، ما أدى إلى شخصنة الأشياء وتراجع دور الفرد على مستوى البناء الروائي، ومن ثم وقف الوعي الطبقي الذي اقترحه لوكاتش عاجزا أمام هذا الواقع الملتبس ليظهر في المقابل مفهوم الوعي الجماعي الذي طرحه غولدمان الذي يركز على "الكشف عن العلاقة الجدلية بين البنية الروائية والبنية الذهنية لجماعة اجتماعية"[1] ومن ثم تظهر رؤية العالم بوصفها نشاطا جمعيا يعبر عنه بوعي فردي يمثله المبدع.

يعتمد الباحث على المرجعية الغربية في تحديده مفهوم رؤية العالم مشيرا إلى لوسيان غولدمان الذي يريد بها "جملة الطموحات والمشاعر والأفكار التي توحد أعضاء جماعة ما (غالبا ما تكون هذه الجماعة طبقة اجتماعية) وتجعلها تعارض جماعات أخرى"[2] فتسهم البيئة الاجتماعية في تشكيل رؤية للعالم من ميزاتها عدم الثبات والسكونية لما تملكه من القدرة على التغيّر والتفاعل مع العوامل الخارجية التي يفرزها المجتمع وتؤثر بشكل أو بآخر على الوعي الجماعي "وهذا ما يجعل رؤية العالم واقعة اجتماعية يعبر عنها في العمل الأدبي من قبل مؤلف يمتلك الحرية في تشكيل عالم من الأحداث ينتظمه زمن ويحده مكان وتصطخب فيه شخصيات،"[3] فتغدو الرواية عملا فنيا حاملا لفكر فئة مجتمعية ينوب عنها الوعي الفردي للأديب المبدع

وفي ما يخص تجسيد رؤية العالم على مستوى الخطاب الروائي، وتمظهر دلالاتها في المتن، يوضح الباحث أن الروائي "لا يكتفي [الروائي] بتحديد رؤية جماعة معينة للعالم، بل يجهد نفسه لتبرير قناعاتها وآمالها وأهدافها وتثبيتها بما يوافق وعيها الممكن،"[4] ومن ثم يسند هذه

[1] _ سيدي محمد بن مالك، رؤية العالم في روايات عبد الحميد بن هدوقة. ص27.

[2] _ caché. Editions Gallimard. Lucien Goldmann. le dieu . p26.Paris .1959

[3] _ سيدي محمد بن مالك، رؤية العالم في روايات عبد الحميد بن هدوقة. ص 29.

[4] _ المصدر نفسه، ص29.

الرؤية إلى شخصيات الرواية، فتعبر عنها بأفكارها ومواقفها، أفعالها وسلوكياتها، وقد تتعدد الرؤى لتعدد زوايا النظر التي تخضع للظروف النفسية والاجتماعية للشخصية، كما تتحكم فيها المرجعيات الفكرية للفرد، لتضطلع "ما يؤدي إلى تأجيج الصراع بين الجماعات المتناقضة، فقد تكون الرؤية ثورية، أو محافظة أو انتهازية أو متشيئة، أو دينية أو إشكالية أو قومية أو مأساوية..."[1] وهي رؤى لا تظهر بشكل جلي وواضح، إنما يكشفها انفعال الفرد في صراعه مع ذاته، وواقعه المعيش، وسعيه نحو تحقيق واقع مأمول.

تلتقي رؤية العالم بالإيديولوجيا في الروايات التي تحفل بموضوعات الماركسية، فتحمل مضامين تتنوع بين الأفكار الثورية، والنضالات الحزبية والنقابية، وتطلعات الفئات المجتمعية، ويوميات الطبقة العاملة، أما عن العلاقة بين رؤية العالم والإيديولوجيا فيوضح سيدي محمد بن مالك أن رؤية العالم تعبر عن "جملة من الأفكار والتصورات تختص بحزب أو سلطة أو جماعة أو شريحة أو طبقة، تزعم المصداقية والعصمة من الزلل وتنظر إلى المستقبل نظرة تفاؤلية تحاول حمل المجتمع كله عليها."[2] فتقبل الانفتاح على باقي الرؤى ودمجها معا بغية تحقيق التكامل، أما الإيديولوجيا فتعمل على"تقزيم الإيديولوجيات المعارضة لها في الواقع والتقليل من غولوائها (...) فهي نظرة واقعية متطرفة لا يهمها إلا بلوغ الغايات وتحقيق المنافع."[3] وبذلك تسير في اتجاه معاكس لما تصبو إليه رؤية العالم التي تحتوي مختلف التغيرات والتطورات التي تلحق الوعي الجمعي.

يصاغ المعطى الإيديولوجي في الرواية بوصفه مكونا جماليا ذا بعد دلالي، لا يتم الوصول إليه إلا من خلال الغوص في عمق الرواية أين تتقاطع المفاهيم والتصورات وتتفاعل الأفكار وتتصارع الشخصيات، وبشأن اضطلاع هذه الأخيرة بمهمة عرض مختلف الطروحات الإيديولوجية ضمن الخطاب الروائي، يستدعي سيدي محمد بن مالك قضية الحوارية عند باختين، فالمتكلم " في الرواية هو دائما، وبدرجات مختلفة، منتج إيديولوجيا، وكلماته هي

[1] _ سيدي محمد بن مالك، رؤية العالم في روايات عبد الحميد بن هدوقة ، ص31.

[2] _ المصدر نفسه، ص34.

[3] _ المصدر نفسه ، ص 34.

دائما عينة إيديولوجية (idéologéme). واللغة الخاصة برواية ما، تقدم دائما وجهة نظر خاصة عن العالم تنزع إلى دلالة اجتماعية،"[1] كما يطرح مسألة العلاقة بين إيديولوجية الرواية والإيديولوجيا في الرواية أين "يسمح للكاتب بتمرير أيديولوجيته وتبريرها فنيا من خلال شخصية أو شخصيات لا تكون كثيرة الحضور بالضرورة،"[2] فإذا كان الصراع تذكيه الإيديولوجيات في الرواية فإن إيديولوجيا الرواية لا يمكن الكشف عنها إلا بانتهاء وفض هذا الصراع.

ج_إجراءات التطبيق

يأتي سيدي محمد بن مالك في الفصل الأول المعنون ب **"الوعي ووساطة الفعل في رو اية "ريح الجنوب"** على تقديم بعض انطباعات النقاد حول الرواية والتي تمحورت في أغلبها حول الشخصيات ومواقفها الإيديولوجية ، إذ لم" يحتكم تشديد النقاد على الخلل في بناء الشخصيات والأحداث إلى مفاهيم لسانية أو نصية واضحة، بل جاء ذلك التشديد كذكرى عابرة تؤكد حكما إيديولوجيا جاهزا"[3] ومن ثم كان عليه تناول مفهوم الوساطة بغية الكشف عن وعي الشخصيات الفكري والإيديولوجي، ذلك أن "انتماء الشخصية لجماعة معينة يسمح لها بالوساطة لوعيها القائم وتحقيق آمالها المستقبلية"[4]، كما توقف عند أثر الشخصية الأيديولوجي وأنماط الوعي في ارتباطها بتعدد الأفعال

وتحت عنوان "**النهاية المفتوحة... ورؤية العالم"** يختم الباحث فصله الأول مشيرا إلى بعض ما تتسم به شخصيات الرواية من اختلافات صنعتها الإيديولوجيات المتصارعة والرؤى المتعارضة والنقد وحتى التشاؤم، وهذا ما جعل الروائي يتوجه نحو" التنبؤ بحدوث تغييرات عميقة في المجتمع حين حرص على أن تتبع الثورة الاشتراكية من حاجة العامل

[1] _ ميخائيل باختين، الخطاب الروائي. تر: محمد برادة، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 1987، ص102.

[2] _ سيدي محمد بن مالك، رؤية العالم في روايات عبد الحميد بن هدوقة. ص38.

[3] _ المصدر نفسه، ص50

[4] _ المصدر نفسه ، ص51.

نفسه إلى التغيير والتطوير مع حضور نخبة مثقفة توجه فكره وتنظم جهده"[1] ومن ثم ارتبطت رؤيا العالم بحسب سيدي محمد بن مالك بهذه التنبؤات التي شكلت الوعي المأمول وتضمنت تطلعات الفئة المجتمعية

أما في الفصل الثاني من الكتاب **"السردية ورؤية العالم في رو اية "نهاية الأمس"":** فقد استفاد الباحث من معطيات النظرية السردية في مقاربة رؤية العالم حيث "لم تكتف الرواية بتتبع مسار السردي لشخصية البشير، بل دأبت على تنظيم المادة القصصية بشكل يناسب سلوك الشخصية وحديثها، فطغى السرد المتعاقب على أشكال السرد الأخرى لاقتفاء أثر الشخصية في كل واقعة تأتيها وكل حدث تتورط به، وغلب العرض على السرد والحوار على الخطاب الداخلي لتفصح الشخصية عن موقفها من العالم،"[2] فتناول فيه موضوعات: القصة، الخطاب، السرد، الحالات والتحولات، وسرد الأفعال باعتبارها تقنيات سردية قادرة على رصد ومتابعة الشخصيات ومن ثم الوقوف على إيديولوجيتها ورؤيتها للعالم، "كما سمحت الرؤية السردية الخارجية بتقديم عالم من الشخصيات والأحداث من خلال منظور مركزي مهيمن"[3] جعلت الباحث يخصص لكل من الرؤية السردية والصوت الإيديولوجي مجالا مهما من الدراسة

يتخذ سيدي محمد بن مالك من الفضاء والإيديولوجيا منطلقا للكشف عن رؤية العالم في رواية "بان الصبح" مستهلا بحثه بحوصلة لأهم المقولات العربية والغربية بغية تحديد مصطلحات كل من (مكان، فضاء، حيز)، وربطها بدورها الجمال والدلالي في الرواية، فيصبح " المكان المنظور إليه باعثا على تحويل الأماني إلى أفعال، والوقفات إلى حركات، ويصبح المكان المنظور منه ساحة يخطط فيها لبرنامج سردي يحقق الطموحات"[4] ما جعل الباحث يركز على تفاعل الشخصيات مع المكان الطبيعي والمكان الجمالي في الرواية، وكذا علاقة المكان بالبنية العاملية. ليقف في خطوة تالية على الموضوعات التي ارتبطت بفضاء المدينة

[1] _ سيدي محمد بن مالك، رؤية العالم في روايات عبد الحميد بن هدوقة ، ص 92.

[2] _ المصدر نفسه، ص99.

[3] _ المصدر نفسه، ص99.

[4] _ المصدر نفسه، ص 159.

، حيث "يعبر الفضاء عن رؤية الشخصية والروائي للعالم من خلال تبني قيم "كونية" أو اعتناق أيديولوجيا "سياسية""[1] من خلال مقاربة التقاطب الفضائي وتحولات الشخصية في الرواية، وارتباط الفضاء بالسلطة.

يغير الباحث استراتيجيته في الكشف عن رؤية العالم بحسب طبيعة الرواية ومميزاتها، فنلفيه يختار في كل مرة منهجا وأسلوبا ورؤية تتناسب ومضامين الرواية وما يغلب عليها من خصائص، ففي رواية "جازية والدراويش" المعروفة بطابعها الرمزي والأسطوري، نجده يعنون الفصل ب **الأسطورة، المرجع والتخييل في رواية "الجازية والدراويش"** ليتولى تحليل الصراع القائم بين الوعي الفعلي الذي يمثل الأسطرة والوعي الممكن الذي يمثل الأدلجة ؛ إذ "يصبو ابن هدوقة من وراء استمداده من فضاء القرية إطارا يجري فيه أحداث رواية "الجازية والدراويش" إلى تشريح الوعي الفعلي المولود من رحم القرية من جهة، وإلى مقابلته بوعي ممكن وافد من المدينة من جهة أخرى. ويركن الوعي الفعلي إلى الدين الذي يمتزج بفكر أسطوري"[2] في حين يتوجه الوعي الممكن نحو الإيديولوجيا، كما استوجبت الدراسة البحث في النسق الثقافي المضمر في الرواية والناتج عن مجموع القيم و المظاهر الثقافية الحاضرة بقوة على مستوى الخطاب.

يخص الباحث سيدي محمد بن مالك الفصل الخامس لمقاربة **الزمكان والرؤية المأساوية في رواية "غدا يوم جديد"**، موضحا أن الرواية "عبرت عن "رؤية مأساوية، تنضح رعبا وشقاء، وتعبر عن رفض مطلق للمجتمع والعالم على حد سواء، وتتوق إلى الانقطاع عن الكون والالتحام بالعالم الآخر،"[3] الأمر الذي جعله يقف على تعريف الرؤية المأساوية، ومدى تأثرها بعاملي الزمان والمكان في الرواية، وعرض أنواعها وأنماط تشكلها. ليتحول نحو رصد تمظهرات رؤية العالم في الرواية بناء على فعل الشخصية في علاقتها مع غيرها من الشخصيات وتفاعلها مع أحداث القصة، ذلك أن "الإنسان ممثلا في رواية "غدا يوم جديد"

[1] _ سيدي محمد بن مالك، رؤية العالم في روايات عبد الحميد بن هدوقة ، ص 153.

[2] _ المصدر نفسه ،ص 189.

[3] _ المصدر نفسه ، ص 234.

بجملة من الشخصيات تتجاذبه مبادئ وأهواء وتتقاذفه ميول وقناعات تعبر عن أنماط مختلفة من رؤية العالم، أدت كلها إلى ظهور وعي جماعي صراعي، وإن كان حواريا على مستوى الملفوظ، يستأثر كل نمط فيه برؤيته النفعية الضيقة."[1] حيث أقصى الباحث سلوك الشخصية وردود أفعالها واكتفى بما يأتي على لسانها بصيغة الخطاب الحواري.

خاتمة: وفي ختام هذه الورقة البحثية نخلص إلى جملة من النتائج تمثلت في ما يلي :

1 _اجتهد النقاد الجزائريون في الكشف عن تمظهر رؤى العالم المتضمنة في الأعمال الروائية التي رافقت التحولات الاجتماعية والسياسية التي عرفها المجتمع. باعتبارها حاملة لمجموع القيم الأصيلة .

2 _ استند المنجز النقدي لدى سيدي محمد بن مالك على المرجعية الغربية، بغية تقريب المفاهيم الأساسية لكل من الوعي الإشكالي، ورؤيا العالم، والإيديولوجيا وغيرها،

3_ اعتمد الباحث التركيب المنهجي قصد الاستفادة من مختلف الأدوات الإجرائية المستمدة من البنيوية باختلاف اتجاهاتها وتعددها من مورفولوجيا وشكلانية وشعرية وسرديات، وسيميائيات وغيرها.

4_ وظف الصراع الذي تعيشه الشخصية في علاقتها مع غيرها من الشخصيات وتفاعلها مع أحداث القصة ومحيطها المجتمعي في تحديد أنماط رؤيا العالم وتمظهراتها في الرواية. حيث لا يمكن الكشف عنها بمعزل عن الوجود الاجتماعي لشخصية الفرد في ظل ما تعانيه على أرض الواقع من قلق وهواجس وتطلع.

[1] _ سيدي محمد بن مالك، رؤية العالم في روايات عبد الحميد بن هدوقة،ص 236.